(٣)

باب الخوف من الشرك

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب الخوف من الشرك).

وقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ش: قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] أي من الذنوب لمن يشاء من عباده. انتهى.

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به، وإن شاء عذبه به.

وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله؛ لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم، وتنقّصٌ لرب العالمين، وصرفُ خالص حقه لغيره وعدل غيره به، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر، مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته، والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله»** (١) رواه مسلم.

ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية: من مُلك الضر والنفع، والعطاء والمنع، الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء، والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله تعالى وحده. فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، شبيهًا بمن له الحمد كله، وله الخلق كله، وله المُلك كله، وإليه يرجع الأمر كله، وبيده الخير كله.

فأزمّةُ الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: ذهاب الإيمان آخر الزمان، حديث (١٤٨).

مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشية والدعاء، والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة، وغاية الحب مع غاية الذل، كل ذلك يجب عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره.

فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له، ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطلُه.

فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة. هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى.

وفى الاية ردٌّ على الخوارج [1] المكفِّرين بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر مخلدون فى النار، وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار.

ولا يجوز أن يُحمل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] على التائب، فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

فهنا عم وأطلق؛ لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلق، لأن المراد به من لم يتب. هذا ملخص قول شيخ الإسلام.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]).

---

(١) الخوارج: جمع خارج، وهو الذي خلع طاعة الإمام الحق، وأعلن عصيانه وألب عليه. وسموا خوارج؛ لأنهم خرجوا على الإمام علي رضى الله عنه، وهم ينسبون الاسم إلى الخروج في سبيل الله، ويسمون أنفسهم «الشراة» أى الذين يشرون أنفسهم من الله أي: يبيعون أنفسهم لله. ويطلق عليهم: «الحرورية» نسبة إلى منزلة حروراء بظاهر الكوفة و«النواصب» أي الذين يغالون في بغض علي بن أبي طالب ويناصبونه العداء، و«المحكمة» أى الذين يقولون: لا حكم إلا لله عند ما وافق علي على مبدأ التحكيم. و«المارقة» من الدين. وهم أول الفرق خروجًا عن السنة والجماعة. يكفرون بالذنب، ويكفرون من خالفهم ويستحلون منه - لارتداده عندهم- ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي كما قال النبي ﷺ فيهم: «يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان» ولهذا كفروا عثمان وعليًا وشيعتهما وكفروا أهل صفين - الطائفتين- ونحو ذلك من المقالات الخبيثة. انظر: الفرق بين الفرق (٩١)، مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٥).

ش: الصنم: ما كان منحوتًا على صورة، والوثن: ما كان موضوعًا على غير ذلك. ذكره الطبري عن مجاهد.

قلت: وقد يُسمى الصنم وثنًا كما قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧] الآية ويقال: إن الوثن أعم، وهو قويّ، فالأصنام أوثان، كما أن القبور أوثان.

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥] أي: اجعلني وبنيّ في جانب عن عبادة الأصنام، وباعِدْ بيننا وبينها. وقد استجاب الله تعالى دعاءه، وجعل بنيه أنبياء، وجنبهم عبادة الأصنام.

وقد بيّن ما يوجب الخوف من ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] فإنه هو الواقع في كل زمان. فإذا عرف الإنسان أن كثيرًا وقعوا في الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام؛ أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله.

قال إبراهيم التيمي (١): ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه: من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده، والنهي عن الشرك به.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء»).

ش: أورد المصنف هذا الحديث مختصرًا غير معزو، وقد رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي.

وهذا لفظ أحمد: حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟**» (٢)

---

(١) هو: إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، أبو أسماء الكوفي، من صغار التابعين، ثقة إلا أنه يرسل ويدلس، كان رأسًا في العلم. روي له الجماعة. توفي سنة (١٩٢هـ).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٨)، حديث (٢٣٦٨٠)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٣٣)، حديث (٦٨٣١) وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (١٥٥٥)، صحيح الترغيب (٣٢).

قال المنذري [١]: ومحمود بن لبيد رأى النبى ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى. وذكر ابن أبى حاتم أن البخارى قال: له صحبة، ورجّحه ابن عبد البر والحافظ.

وقد رواه الطبرانى بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خَديج [٢]. مات محمود سنة ست وتسعين. وقيل: سنة سبع وتسعين وله تسع وتسعون سنة.

قوله: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» هذا من شفقته ﷺ بأمته ورحمته ورأفته بهم، فلا خير إلا دلهم عليه وأمرهم به، ولا شر إلا بينه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه، كما قال ﷺ فيما صح عنه: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم . . .**» [٣] الحديث.

فإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم فى العلم والإيمان بمراتب؟ خصوصًا إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، وما عرفوا معنى الإلهية التى نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله.

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «**الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل**». قال أبو بكر: يا رسول الله، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو ما دُعي مع الله؟ قال: «**ثكلتك أمك، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل**» الحديث. وفيه: «**أن تقول: أعطاني الله وفلان، والند: أن يقول الإنسان: لولا فلان قتلنى فلان**» [٤]. انتهى. من «الدر».

قال المصنف رحمه الله: (وعن ابن مسعود رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار») [٥] رواه البخارى).

---

(١) هو: الإمام العلامة الحافظ المحقق شيخ الإسلام زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري الشامي الأصل المصري الشافعي، محدث حافظ فقيه، مشارك في القراءات واللغة والتاريخ. من مؤلفاته: شرح التنبيه للشيرازي في فروع الشافعي، والترغيب والترهيب. توفى سنة (٦٥٦هـ).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٥٣)، حديث (٤٣٠١) وهو صحيح. وانظر الصحيحة (٩٥١).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، حديث (١٨٤٤)، والنسائي، حديث (٤١٩١)، وابن ماجه، حديث (٣٩٥٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١/ ٦٠)، حديث (٥٨) والبخاري في الأدب المفرد ص (٢٥٠)، حديث (٧١٦) وهو صحيح، وانظر صحيح الأدب المفرد، وصحيح الجامع (٣٧٣١).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، حديث (٤٤٩٧).

ش: قال ابن القيم رحمه الله: الند: الشبيه، يقال: فلان ند فلان، ونديده، أى: مثله وشبهه. انتهى. قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قوله: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا» أي يجعل لله ندًّا فى العبادة يدعوه ويسأله ويستغيث به «دخل النار».

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

والشرك فاحذره، فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيًا ... كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الديان

واعلم أن اتخاذ الند على قسمين:

الأول: أن يجعله لله شريكًا فى أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم، وهو شرك أكبر.

والثانى: ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت. وكيسير الرياء، فقد ثبت أن النبى ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتنى لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده» (١). رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخارى في «الأدب المفرد» والنسائي وابن ماجه. وقد تقدم حكمه فى باب فضل التوحيد.

وفيه: بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلي، كطلب الشفاعة من الأموات، فإنها ملك لله تعالى وبيده، ليس بيد غيره منها شيء، وهو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر، كما يأتي تقريره فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة. ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار» (٢)).

ش: جابر: هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام - بمهملتين - الأنصاري ثم السلمي -

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الكفارات، باب: النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، حديث (٢١١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، حديث (١٠٨٢٥)، وأحمد في مسنده (١/ ٢١٤)، حديث (١٨٣٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٤٠)، حديث (٢٦٦٩١)، والبخاري في الأدب المفرد ص (٢٧٤)، حديث (٧٨٣) وهو صحيح، وانظر الصحيحة (١٣٩)، وصحيح الأدب المفرد.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركا دخل النار، حديث (٩٣).

بفتحتين - صحابي جليل هو وأبوه، ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كُفّ بصره، وله أربع وتسعون سنة.

قوله: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا».

قال القرطبي: أى: لم يتخذ معه شريكًا فى الإلهية، ولا فى الخلق، ولا فى العبادة، ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة: أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة. وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة، ويخلد فى النار أبد الآباد، من غير انقطاع عذاب ولا تصرُّم آماد.

وقال النووي: أما دخول المشرك النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلَّد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بُكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به. لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مُصرًا عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًا عليها فهو تحت المشيئة. فإن عُفي عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عُذب فى النار ثم أُخرج من النار وأُدخل الجنة.

وقال غيره: اقتصر على نفي الشرك؛ لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم؛ إذ من كذب رسل الله فقد كذّب الله، ومن كذّب الله فهو مشرك، وهو كقولك: من توضأ صحت صلاته. أي: مع سائر الشروط، فالمراد: من مات حال كونه مؤمنًا بجميع ما يجب الإيمان به إجمالاً فى الإجمالي وتفصيلاً فى التفصيلي. انتهى.